شرح المجدلة (الذكصولوجيا)

الميتروبوليت بيروثيوس فلاخوس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في هذه السلسلة من العظات التي سوف تُقرأ في الكنائس (في أبرشية نافباكتوس والقديس فلاسيوس في اليونان)، سوف نشرح بكلمات بسيطة أبيات المجدلة التي نرتلها في كل سحرية يوم أحد أو عيد، ونقرؤها في السحرية اليومية وغيرها من الخدم.

المجدلة هي مجموعة آيات من الكتاب المقدس، العهدين القديم والجديد، تُرتّل معاً في نهاية خدمة السحرية.

الإله الثالوثي

تبدأ المجدلة بتمجيد الإله الثالوثي الذي خلق نوره وأظهره. "المجد لك يا مظهر النور. المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة. نسبّحك، نباركك، نسجد لك نمجدك، نشكرك لأجل عظيم جلال مجدك. أيها الرب الملك، الإله السماوي، الآب الضابط الكل، وأيها الر ب الابن الوحيد، ويا أيها الروح القدس".

نجد في هذه الآيات، ثلاث نقاط:

الأولى هي أن الله ثالوث، آب وابن وروح قدس. هذا ما نجده بشكل ثابت في تعاليم الكتاب المقدس، وايضاً في كل نصوص الكنيسة الليتورجية. كل الصلوات إلى الله تنتهي باستدعاء الله الثالوث: "...للآب والابن والروح القدس ، الآن وكل أوانٍ وإلى دهر الداهرين". هذا وحي من الله نفسه، أظهره في نهر الأردن وعلى جبل طابور. كل الأسرار تُتمّم باسم الله الثالوث. إن التعليم عن الله الثالوث، الذي هو ثلاثة أشخاص لهم جوهر وقوة مشتركين، يعفينا من التوحيد كما من تعدد الآلهة، وأيضًا من التعليم بأن هناك قوة مجردة غير مرئية هي التي خلقت العالم.

النقطة الثانية هي أن الله الثالوث هذا خلق العالم والإنسان. وكما نعلم، فإن أول شيء فعله هو خلق النور. وهذا مكتوب في سفر التكوين: "وقال الله ليكن نور فكان نور". قبل خلق النور لم يكن هناك شيء، لم يكن هناك وجود، ظلمة. أظهر لنا الله الثالوث النور الحقيقي، الذي هو معرفة الإله الحقيقي.

النقطة الثالثة هي أن هذا الإله يعيش في النور، النور الحقيقي. عندما رأى بعض القديسين المسيحَ المتجسد، كالتلاميذ الثلاثة على جبل طابور، وسمعوا صوت الآب، ورأوا الروح القدس كسحابة مشرقة، رأوا مجد الله، أي نور الله. لأن الله له مجد عظيم، لذلك نحن نرتّل ونباركه ونعبده ونمجده ونشكره.

يمكن ملاقاة الله الثالوث في المجد والنور، بينما نحن مخلوقاته، بما نرتكب من الخطايا كل يوم، في الظلمة الروحية. ومع ذلك، فإننا نتمتّع بمحبته هذه، لأنه في كل يوم يُظهر لنا نور الشمس الحسية التي تنيرنا وتدفئنا وتنشّطنا، لكنه أحيانًا يُظهر لنا أيضًا بعض أشعة نوره التي نعتبرها محبة ورحمة وغفران خطايا ودفئاً داخلياً. لهذا، على الرغم من عدم قيمتنا، نشعر بالحاجة إلى شكره وتسبيحه.

لذلك، عند نهوضنا من النوم في كل يوم، من الظلام الذي نغرق فيه للراحة من مشاق هذه الحياة العسيرة، يجب أن نصلي إلى الله، ومن بين أمور أخرى نقول المجدلة، لنسبّحه لأنه أرانا نور الشمس الحسية ليوم آخر، ولكن أيضًا نور محبته وطول أناته. بشكل خاص يجب أن نفعل هذا كل يوم أحد. أن نستيقظ في الصباح ونذهب إلى الكنيسة، لنسمع، من جملة ما نسمعه، هذا التمجيد يُرنّم كنشيد انتصار، بحسب لحن اليوم أو الدوكساستيكون.

"تجسّد الابن كلمة الله"

إذاً هذه المجدلة نرتلها أو نقرؤها كل صباح في خدمة السحرية أو في صلواتنا الصباحية، عند نهوضنا من النوم، أظهر تحليل الآيات الأولى منها أنها تشير إلى الله الثالوث، الذي أظهر لنا النور العقلي والروحي. سننظر اليوم إلى الآيات التالية التي تشير إلى تجسد الابن وكلمة الله.

يظهر من هذا أن كل صلاة تتم بطريقة خاصة، وفي كل صلاة يختبئ لاهوت كامل. تشير الآيات الثلاثة التالية من المجدلة إلى سر التدبير الإلهي: "أيها الرب الإله، يا حمل الله، يا ابن الآب، يا حامل خطيئة العالم ارحمنا يا رافع خطايا العالم. تقبل تضرعنا أيها الجالس عن يمين الآب وارحمنا. لأنك أنت وحدك قدوس، أنت وحدك الرب يسوع المسيح، في مجد الله الآب، آمين."

كما يتبيّن، فإننا نشير هنا إلى المسيح ابن الله المتجسد لخلاص البشر. بعبارة "حمل الله"، تذكّرنا المجدلية بتضحيته على الصليب. لقد سُلِّم المسيح للاستشهاد، كما يقول النبي إشعياء، كحمل لا عيب فيه، أي أن التضحية به تمّت بإرادته، مع أنه لم يرتكب أي خطيئة. السابق الشريف دعاه أيضًا حمل الله عندما أشار إليه لتلاميذه. بعبارة "أيها الجالس عن يمين الآب"، تذكّرنا المجدلة بقيامة المسيح وصعوده، حتى أنه الآن بالطبيعة البشرية التي اتّخذها من العذراء يجلس عن يمين الآب وتمجده الملائكة. أما عبارة "أنت وحدك قدوس، أنت وحدك الرب يسوع المسيح لمجد الله الآب"، مع صورة الحمل، فبها نتذكّر سر الشكر الإلهي. في نهاية القداس الإلهي، بعد تحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وقبل المناولة المقدسة، يهتف الكاهن: "القدسات للقديسين" ، نعلن: " قدوس واحد. رب واحد، يسوع المسيح لمجد الله الآب. آمين".

المسيح، بتجسده وتعليمه وآلامه وصليبه وقيامته وصعوده، أظهر لنا محبة الآب الكبيرة وأيضاً محبة الله الثالوث بشكل عام. فخلق العالم وتجديده وخلاصنا هي قوة الله الثالوث. في الليتورجيا الإلهية، يمكننا أن نعيش النور الحقيقي الذي هو الله، ونشعر بمحبته الحقيقية الذي هو قوة الله، ونتأكد من السلام والبر اللذين هما قوى الله الثالوث. كل الأشياء البشرية متغيرة ومؤقتة. الله هو الوحيد الذي يرينا ويعلن لنا حالة الخليقة الحقيقية، وأيضًا حالة طبيعتنا.

عندما نعيش حقًا جو القداس الإلهي، يمكننا أن نختبر ما هو الله وأنه يحبنا، حتى إلى الصليب، وما هو الإنسان والغرض من وجوده، ولماذا خلق العالم و كيف أعيد خلقه بتجسد ابن الله كلمته، ما هو الحاضر وما هو المستقبل، ما هو ملكوت الله وماذا يجب أن نفعل للمشاركة فيه، من هم القديسون وكيف يمكننا أن نسير في طريقهم حتى نصبح أيضًا قديسين.

اعتاد أحد الرهبان وكان يحب القداس الإلهي أن يقول: "من الأفضل أن لا تشرق الشمس في اليوم الذي لا يُقام فيه قداس". هذا صحيح ويعيشه أولئك الذين يفهمون كنز القداس الإلهي العظيم المُتاح لنا. يا إخوتي الأحباء، لا تنسوا الاشتراك في القداس الإلهي كل يوم أحد، إذ عدم ذهابنا إلى الكنيسة يشبه العيش في الظلام دون رؤية نور الله. نحن نمجّد الله حقاً في القداس الإلهي.

حياة الصلاة اليومية

إن الليتورجيا الإلهية هي بتفوّق صلاة وتقدمة لله تقوم بها الكنيسة، كل يوم أحد، في تذكار القديسين، وأيضًا في أي وقت يجب القيام به. في الأديرة، وخاصة في جبل آثوس، تُقام يوميًا.

ولكن إلى صلوات الكنيسة والقداس الإلهي، يجب على المسيحيين الصلاة يوميًا. إن الإنسان في الحقيقة كيان مصلٍ، إنه كائن يجب أن يصلي. في النهاية، لقد خلقه الله على صورته ومثاله، فإن النموذج الأوليّ لخليقته هو ابن الله وكلمته، الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، وهذا يعني أنه يجب أن يعود ويشير إلى نموذجه الأول. أن لا يفعل ذلك يعني أنه فقد وجهته.

هذا نجده في آيات الذكصولوجيا التي نلقي نظرة عليها اليوم، والتي تتضمن كلمة "يوم" وتشير إلى الصلاة والحياة اليومية.

بعد تمجيد الله الثالوث وتجسد ابنه، نعترف بأنه مركز حياتنا إذ نرتل: "في كل يوم أباركك، وأسبّح اسمك إلى الأبد، وإلى أبد الأبد". بعد أن شعرنا سابقًا بمحبة الله، نعترف الآن أننا سنسبّح اسمه يوميًا، ولكن أيضًا لجميع الأدهار. حقًا، إن لاسم الله قوة عظيمة ومن يدعوه ينال نعمة عظيمة وبركة. هذا ما تمدحه الملائكة، وأيضًا القديسون في السماء. ذكر اسم الله هذا هو العبادة والليتورجيا الإلهية الوحيدة في زمن بعد المجيء الثاني للمسيح. وهكذا، عندما نمدح اسم الله كل يوم، سوف نكون مستحقين لأن نمدحه إلى الأبد.

في الآية التالية نطلب: "أهّلنا يا رب أن نُحفَظ في هذا اليوم بغير خطيئة".

يميل الإنسان منذ صغره نحو الشر، كما يقول الكتاب المقدس، لأن في نفسه الميل إلى الابتعاد وقبول التجارب من إبليس مع الأهواء الموجودة فيه وفي عالم الخطيئة والظلم الذي يحيط به. تتكرر الإهانات والإغراءات ويسقط الإنسان كل يوم. لا توجد طريقة لعيش يوم بلا خطيئة. يا لها من تجربة مريرة في هذه الحالة! كل يوم نخزي أنفسنا ونحزن على ما نفعله ونقول "هل فعلت ذلك؟ كيف أفعل ذلك؟"

لذلك عندما ننهض من النوم نشعر بالحاجة لأن نطلب من الله أن يحمينا ويحرسنا حتى لا نخطأ ولا نبتعد عن مشيئته ولا نفقد نعمته. بالنهاية، الخطيئة ليست مجرد إنكار لوصايا الله بل هي ابتعاد الإنسان عن مصدر الحياة والنور الحقيقي ما يدخِل الإنسان في الموت والظلام.

لا يستطيع الإنسان بإرادته وقدراته الصغيرة أن يتجنّب الخطيئة تمامًا، لذلك يطلب حماية الله. نحن صغار وضعفاء ونطلب المساعدة من نعمة الله. لذلك كل يوم وطوال اليوم فلنحمد اسم الله ونصلِّ صلاة: "يا ربّي يسوع المسيح ابن الله ارحمني" ، حتى لا نخطأ، بقوة اسم المسيح.

إله آبائنا

في الذكصولوجيا التي نرتلها في نهاية خدمة السَحَر، تمامًا كما تعني الكلمة نمجّد الله لعظمته ونوره وما فعله للإنسان ولخلاصه. وَتفَسَّر لَفْظَةُ "مُمَجَد" بِ "مُبَارَكَ". لكن أن يبارك الله الإنسان ويرسل نعمته شيء، وأن يبارك الإنسان الله أي يمجده شيء آخر.

بالطبع، الله لا يحتاج إلى تمجيد الإنسان، لأنه لا ينقصه شيء، ولكن عندما يمجّد الإنسان الله ينتفع هو نفسه روحيًا. تمجيد الله يعود على الإنسان نعمةً وبركة له. لهذا السبب، يعلّم الآباء القديسون أن صلاة التمجيد لله أقوى من صلاة الابتهال. اليوم سوف نحلل آيةً ذات معنى كبير من الذكصولوجيا هي: "مبارك أنت يارب إله آبائنا، مسبح وممجد اسمك إلى الأبد آمين".

هنا يوصَف الله على أنه إله آبائنا. في الواقع، نحن لسنا وحدنا على الأرض، ولسنا من أب مجهول ومستقلّ عن الأجيال السابقة، لكننا أحفاد شخصيات عظيمة عاشت بحكمة ومحبة الله. الله ليس فكرة مجرّدة ولا قيمة وحسب بل هو إله محدد، ثلاثة أشخاص، وله جوهر وثلاثة أقانيم، وقد استعلن لآبائنا. إنه إله الأحياء أي الذين عرفوه وعاشوا حياته.

آباؤنا هم الأنبياء والأبرار في العهد القديم، الرسل والآباء والشهداء والمعترفون والقديسون والصالحون في العهد الجديد، الذين عرفوا الله شخصيًا وشهدوا له. نحن نعلم هذا لأنهم تركوا لنا نصوصهم وشهاداتهم. إذن، إلهنا ليس إلهًا مجهولًا وغير مختَبَر، بل هو إله آبائنا إبراهيم وإسحق ويعقوب والرسل وآباء المجامع المسكونية والقديسين المعلومين مثل القديس بوليكاربوس والقديس ديمتريوس والقديسة باراسكيفي، إلخ. إنه ليس إله الفلاسفة والمفكرين بل إله آبائنا المجيد. هذا يعني أننا لا نتأمل في قضايا إيماننا ولا نرتجل بل نتبع خطوات وتأكيدات آبائنا الذين قدّموا لنا شهادتهم عن الله ومحبته.

هذا يثبِت أن اسم الله كان ممجداً على مدى القرون. لقد أكّد آباؤنا أن اسم الله عظيم وممجد، وبه تُهزم كل القوى المضادة. ونحن عندنا التأكيد على قوة اسم الله. إذ يذكر الكاهن اسم الله الثالوث يتحوّل الماء إلى ماء مقدّس وتتمّ معمودية الموعوظين ويصبحون مسيحيين. باسم الله، تُتمم كل الأسرار ومنها أسمى سرّ أي الإفخارستيا الإلهية. اسم الله إذ ندعوه نطرد كل أعدائنا. في النهاية، قال المسيح لتلاميذه:

"تُخْرِجُونَ الشَّيَاطِينَ بِاسْمِي، وَتتكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. تَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ، وَإِنْ شَرِبْتم شَيْئًا مُمِيتًا لاَ يَضُرُّكُمْ، وَتَضَعُونَ أَيْدِيَكم عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ" (مرقس ١٦:١٧-١٨).

يجب أن نفهم أننا ننتمي إلى عائلة كبيرة عاش فيها آباء الأجيال السابقة، وأيضاً أحفادنا القادمون سيعيشون. لا يمكن فصلنا عن حياة وتعاليم آبائنا كما عبّرت عنها نصوصهم الشخصية والمجمعية. هذه النصوص هي "شهادات" الله، أي البراهين على وجوده. لا نتوقع أن نجد براهين منطقية مثبتة على وجود الله في الفلسفة والعلوم، لأن الدليل الوحيد على وجود الله هو كلمات قديسينا وحياتهم ومعجزاتهم. وبالطبع، إذا وجدنا أننا مستحقون لصلواتهم لاكتساب بعض خبراتهم فعندئذ نكتسب إيماناً شخصياً تجريبياً بالله.

استناداً إلى تعاليم آبائنا نحن واثقون من وجود الله ومحبته وقوة اسمه العظيمة. فلنفهم ونستخدم هذا الكنز العظيم لاكتساب خبرتنا الشخصية.

رحمة الله

إن الله بإظهاره ذاته لأنبياء وأبرار العهد القديم، كما للرسل والقديسين في العهد الجديد، عرّف الناس بعضًا من صفاته، أي أنه محبة ورحيم وخيّر وعادل، إلخ. إن الأسماء التي نعرف الله بها هي قواه. أي أن الله أظهر، في بعض الأحيان، شفقته على الخطأة فأدركوا أنه كان رحيمًا ومحسنًا.

لقد أظهر المحبة وفهموا أن الله محبّ. كشف الله في هذه الإعلانات للأبرار والقديسين أنه رحيم. لهذا السبب، عندما نطلب شيئًا من الله في الكنيسة، فإننا نبرره: "لأنك إله رحيم ومحب للبشر وإليك نرفع المجد". هذا ما نعترف به ولهذا نسأل في الآية من الذكصولوجيا :"لتكنْ يا رب رحمتك علينا كمثل اتكالنا عليك". نحو نهاية الذكصولوجيا نجد الصلاة: "فابسطْ رحمتك على الذين يعرفونك". كلتا الآيتان تدلّان على رحمة الله التي نسأله أن يرسلها إلينا ويبقيها علينا.

بادئ ذي بدء، نؤكد هنا أن رحمة الله أبدية لأنها نعمته، وأنها تُسكب بغنىً على الناس. ثم نؤكّد حقيقتين عظيمتين، الأولى هي أن رحمة الله تُسكب علينا بحسب رجائنا في الله، والثانية أن رحمة الله تبقى على مَن يعرف الله.

الرجاء والإيمان بالله شرطان أساسيان لكي يرسل رحمته. إذا كنا لا نترجّى ولا نؤمن، فالله لن يرحم لأنه بالتحديد لا ينتهك حريتنا. نسأل الله ب "يارب ارحم" ولكن رحمة الله علينا تكون بحسب إيماننا وصبرنا.

تظهر رحمة الله، أي نعمته، في حقيقة أنه بالرغم من أننا، ونحن مخلوقاته، نخطأ يوميًا، إلا أنه كأبٍ محب لا يعاقبنا بل يغفر لنا وينتظرنا ويرعانا، لأنه يريد عودتنا. نحن نعيش هذا كل يوم. لهذا السبب نردد في مكان آخر: "رحمتك يا رب تتبعني جميع أيام حياتي". ماذا نكون نحن بدون رحمة الله ومحبته!

لكن رحمة الله تتجلّى ليس فقط في تسامحه عندما نخطأ بل أيضًا في ازدياد محبته لنا عندما نحبه نحن. العلاقة مع الله علاقة محبة. عندما يكشف لنا مجد وجهه، تزداد محبتنا له ونريد أن نرى المزيد من المجد لذلك نطلب من الله أن يبسط رحمته. ندرك أحيانًا أن حياتنا ليست كما يريدها الله ونطلب امتدادًا لمحبته ورحمته.

هذا الامتداد لرحمة الله لا يتجلّى إلا للذين يعرفونه، لذلك نردد: "ابسط رحمتك على الذين يعرفونك". مَن لا يعرف الله ينسب إليه كل المواقف السلبية والبغضاء والشر والانتقام وما إلى ذلك. ولكن الله محبة ورحمة.

رحمة الله أي نعمة الله تحمينا وتساعدنا على عدم الخطيئة، على الأقل كي لا نقع في خطايا مميتة ولا نبتعد عنه. إذا رفع الله رحمته قد نرتكب أكبر الخطايا بالأهواء التي فينا. لكن رحمة الله تغفر لنا عندما تقودنا انحرافاتنا إلى الارتداد عنه وإلى ارتكابات كثيرة.

لذلك يجب أن يكون دعاؤنا كل يوم: "ابسط رحمتك على الذين يعرفونك". آمين.